الفصل التاسع

العروس والجمل

بعد الانتصار الكبير الذي حقّقه صلاح الدّين في حطّين في 4 تموز/ يوليو 1187م تابع السلطان سيره بسرعةٍ نحو الشمال، فاستولى على عكّا وبيروت وصيدا، دونما قتالٍ كبير. فقد كانت تحصيناتُ تلك المدن ضعيفة، وسقطت بسرعةٍ في أيدي المسلمين. أمّا في صور؛ لقد فوجيء السلطان مفاجأةً غير سارّة. فقد توقع أن تسقط الثكنة الساحلية جنوبَ بيروت كما سقطت سائر المدن المسيحية الأخرى. وكان ريموند الطرابلسي قد تلبّثَ قليلاً أثناءَ فراره من حطّين في صور، ثم تابع سيره، باعتبار أنّ دفاعات المدينة ليست جيدة. وأقبل صلاح الدين على التفاوض مع القائم على أمر المدينة من أجل تسليمها صلحاً، على أن يكونَ أهلُها آمنين في الخروج منها بما يملكونه دونما اعتراض. لكنْ عندما وصلت الفرق الإسلامية إلىٰ صور، وجدوها محصّنةً جيداً، ولها قيادةٌ حازمة. فالفارس الذي جرى التفاوض معه من قبل نحّاه قادمٌ جديدٌ عنيف اسمه كونراد أوف مونتفرّا Conrad of Montferrat. وصل كونراد إلىٰ المدينة في ضيقٍ من الوقت، أي قبل أيامٍ من ظهور المسلمين أمام أسوار المدينة. وكونراد شخصيةٌ مغامرةٌ غامضةٌ أخرىً مثل الملك غي وشاتيون، تملك تاريخاً في القتل

والتآمر. وقد وصل على متن سفينةٍ من پيزا، فارّاً من مؤامرةٍ حيكت ضده في القسطنطينية. ظهرت سفينته أولاً أمام عكّا لكنّه عرف أنّ المدينة سقطت بيد صلاح الدِّين، فسارع المركيز إلىٰ تحويل السفينة شمالاً باتجاه صور، الحصن الاستراتيجي الأخير للمملكة اللاتينية، حيث تتجمّع البقايا الباقية من الجيش الصليبي المهزوم. ونظر أهالي صور إلىٰ مونتفرّا باعتباره مبعوثاً من الله (لإنقاذهم). وقد رجَوهُ أن يأخذ على عاتقه أمر تنظيم الدفاع عن المدينة. ووافق هو على ذلك بشرط القَسَم له على الطاعة الكاملة باعتباره القائد الوحيد. وعندما بدأ المسلمون يحاصرون المدينة، كان مونتفرّا يرفع الروح المعنوية للجنود المسيحيين، ويعيد تنظيمهم لدفاعٍ قويٍ ومصمِّم. وقد دفع ذلك الظهور للسلطان بالرايات المزركشة، المدافعين عن المدينة إلىٰ الصعود على الأسوار، وتمزيق الأعلام الصلاحية في حركةٍ استفزازيةٍ واضحة. وبعد أن استخبر السلطان عمن يقود الدفاعَ عن المدينة، أدرك أنه يحتفظ بوالده أسيراً في دمشق. وهكذا جُلب وليم أوف مونتفرّا، وهو شيخٌ متعَبٌ، ومحاربٌ من محاربي حطّين، وعُرض مقيَّداً بالسلاسل أمام عيون المدافعين على الأسوار. وأرسل صلاح الدِّين رسولاً إلىٰ كونراد مع وعدٍ بإطلاق سراح والده، والإنعام عليه بمالٍ كثيرٍ، إن سلّم الابن المدينة. وصاح كونراد بجوابه من على الأسوار: «قطِّعه إرَباً، فماذا يُهمني؟ سأكون أول من يطلق عليه سهماً، لأنه عجوزٌ ولا قيمة له!». وعندما قُرِّب وليم للأسوار لاختبار تهديدات الابن، لم يبدُ منزعجاً من افتقار ولده إلىٰ حسّ العرفان والوفاءِ له. فقد صاح وليم بولده: كونراد، أحرس المدينةَ ودافعْ عنها جيداً! وأخذ كونراد سهماً وأطلقه من قوسه على والده. وعندما سمع صلاح الدِّين القصة بدا متأثِّراً: «هذا الرجل كافر، وبالغ القسوة». وقد أدرك أنه سيفقد فرصته وهيبته إن أقام طويلاً أمام أسوار المدينة حبيسَ الحصار الذي يضربُهُ عليها. وكان رجاله متعبين من القتال الطويل، لكنهم كانوا مشتاقين للنهب والغنائم. ولم يرد السلطان الاعتراف بالعجز.

ولكي يُرضي مطامع ضباطه وعسكره فقد ترك حصار صور واتجه إلىٰ أهدافٍ أقلّ مناعةً، وأكثر غنىً. تحرّك نحو الجنوب فأخذ قيسارية وأرسوف ويافا، إلىٰ أن توقف مرةً أخرى أمام عسقلان.

كانت عسقلان إحدى المدن الخمس الكبرى في فلسطين. وتقع على الطرف الأقصى للمملكة اللاتينية من ناحية الجنوب. ويمتد سورها على هيئة قوس، كما أنّ ميناءَها محصَّنٌ تحصيناً جيداً. وهو محميٌّ بجدرانٍ عاليةٍ تتخلَّلُها أبراجٌ ومَراقبُ بارزةٌ وقوية. وعلى بعد ثلاثين ميلاً إلىٰ الجنوب من عسقلان تقعُ يافا، كما أنّها على مبعدة يومٍ واحدٍ من القدس. وتكمن أهمية عسقلان الاستراتيجية في علاقتها بمصر. فإذا وقعت في يد المسلمين فإنّها ستتحوّل بسرعةٍ إلىٰ مركزٍ للقوات البحرية والبرية معاً. ومع أنّ المدينة كانت مبنيةً جيداً؛ فإنّ أسوارها لم تكن بالإتقان والصيانة نفسها. ولذلك اعتقد صلاح الدِّين أنّ بوسعه أخذها بسهولة. وحيث كان بوسعه تجنُّب الحصار وحفر الخنادق؛ فإنه كان يفعلُ ذلك بحماس. فالوقت عاملٌ مهمٌّ في تلك الظروف، لأنّ العروس والجائزة: القدس، تنتظره. وكانت كلماتُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم هي التي تقوده: «من فُتح له بابُ خيرٍ فلينتهزه، فإنه لا يدري متى يُغلقُ دونه»[1].

ولكي يشجّع السلطان المدافعين عن المدينة على الاستسلام، فقد دعا أسيراً آخر مهماً، إنه الملك غي دو لوزينيان. عرض السلطان على الملك صفقةً مؤدَّاها أنّه إذا نجح **غي** في دفع حرس المدينة إلىٰ الاستسلام، فسيُطلق سراحه. وبهذا الوعد اقتيد الملك إلىٰ أسوار المدينة، وتُرك هناك، للعمل على إطلاق سَراحِ نفسِه. اقترب الملك من الأسوار ورفع صوته وسط شكوك المستشارين

(1) في أصل المؤلف أنّ هذا القول نصٌ قرآني. وهو في الحقيقة أثرٌ منسوبٌ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، نقله ابن شدّاد في السيرة، مرجع سابق، ص 81، واقتبسه منه أبو شامة في كتاب الروضتين 2/ 92.

وانتظارهم: «أيها السادة! صلاح الدِّين قال إنكم إذا سلّمتم المدينة إليه فسيُطلقُ سراحي. وأنا لا أرى أن تُسلَّم مدينةٌ جميلةٌ كهذه من أجل حرية رجلٍ واحد. فإذا كنتم تظنون أنه يمكنكم الاحتفاظ بعسقلان للمسيحية فلا تسلّموها. لكنْ إذا ظننتم أنه لن يكونَ بوسعكم الدفاعُ عنها، فأرجوكم أن تسلّموها لكي أُطلقَ من الأسر». وقال الرجل أكثر من ذلك. أخبرهم أنّه إذا صار حراً، فإنه سيطلب النجدة من أوروبا فيما وراء البحار. بيد أنَّ اقتراحات الملك لم تعجب فرسان المدينة، ذلك أنّ ثقتهم به كانت أقلّ من ثقتهم بالسلطان. وهكذا عاد الملك **غي** إلىٰ معسكر صلاح الدِّين فارغَ اليدين، موقناً أنه سيبقى أسيراً عند صلاح الدِّين. ومع استمرار تلك المفاوضات، فإنّ صلاح الدِّين واصل جهوده لأخذ المدينة بالقوة. فمع كلّ ساعةٍ كان المسلمون يتقدمون في ضرب الأسوار وتشعيثها، وهو الأمر الذي كان المستشارون يتابعونه وينظرون فيه. وقبل أن لا يعودَ أمامهم خيار، قرَّروا أن يستسلموا. وقد شرح صلاح الدِّين لأخيه الملك العادل أسباب تسامُحه مع المدافعين: «نضمنُ لهم الأمان لأنفسهم وأموالهم، اقتناعاً بأنَّهم يفرون من قَدَر الله إلىٰ قَدَرِ الله. ويدفعُني لذلك الحرصُ على نساء المسلمين وأطفالهم بالمدينة أن ينالهم سوءٌ من الجيش المسيحي، كما أنّ ذلك حريٌّ بأن يحفظ المدينة من السلب والنهب». وهكذا فإنّ المدينة التي سقطت في يد الفرنج قبل أربع وثلاثين سنة بعد حصارٍ دام سبعة أشهر، أثبتت أهميتَها بالنسبة للمملكة اللاتينية، لكنها تعودُ الآن إلىٰ أيدي المسلمين. وعندما كان السلطان يفاوض لاستلام المدينة، كانت كتائبه العسكرية تحصد فتوحاتٍ أخرى من حصون المسيحيين الضعيفة الدفاع: غزة، والنطرون[1]، والرملة، والداروم. وفي حصن فرسان الهيكل بغزة استخدم صلاح الدِّين أداته التفاوضية الأخرىٰ. فقد أرسل أسيره جيرار دو ريدفور Gerard de Ridefort، الذي كان رئيس فرسان الهيكل، إليهم، ليطلب منهم التسليم. وقد أثبت دو ريدفور أنَّه

(1) عند المؤلف: لطرون Latron، وفي المصادر العربية: النطرون.

أكثر إقناعاً من الملك **غي**. ونتيجةً لذلك فقد كسِب حريته. وهكذا قاد مباشرةً الهيكليين المحرَّرين شمالاً إلىٰ صور. وسيزيد ذلك من متاعب صلاح الدِّين لاحقاً. لكنْ الآن، كان صلاح الدِّين قد حقَّق أهدافه المباشرة. فالدائرة حول القدس صارت كلها بيده.

ارتاح السلطان أياماً في عسقلان، معداً نفسه للاندفاعة النهائية باتجاه القدس. بعد مكة والمدينة، تُعتبر القدس ثالثة المدن المقدَّسة لدى المسلمين. وحسب الموروثات الإسلامية؛ فإنّ المدن الثلاث (بالإضافة إلىٰ مدينة الكوفة بالعراق) خُلقت من نفس المادة قبل خَلْق الأرض. كانت القدس الجائزة الكبرى؛ هدف صلاح الدِّين في حياته كلها ـ كما أنها كانت هدف أسلافه (عماد الدين) زنكي، ونور الدين. إنها عبء التسعين سنةً الأخيرة من التاريخ العربي، وآخِر فرائض الجهاد وأهمّها. لقد كانت موطن إبراهيم ودار الأنبياء، حيث نزل عليهم الوحي، وهي موطن قبة الصخرة، حيث بابُ الرحمة، ومقر سليمان وداود، ونبع البركة. وسيؤدي فتحها إلىٰ إكمال استعادته فلسطين بعد حوالي المائة سنة على احتلالها.

وقعت القدس دائماً في قلب الإسلام. فقبل خمسمائة وثمانٍ وثلاثين سنةً، أُسري بالنبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم، كما يذكر القرآن، من المسجد الحرام بمكّة على متن البُراق، إلىٰ المسجد الأقصى بالقدس. وهناك اجتمع كل الأنبياء السابقين، بمن فيهم المسيح، واحتفوا بالنبي (محمَّد) على مائدةٍ ضخمة. ثم إنه في الليلة العظيمة، في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب الفرد، ومن على الصخرة التي تعودُ في أصلها للجنّة، عُرج بالنبي محمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ السماء وصولاً إلىٰ سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى. وهكذا فما كذب الفؤاد ما رأى... وهكذا كانت رحلة النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم إلىٰ القدس ومن القدس.

وقفت العروس، القدس، على مشارف التحرير. فقد انفتح نقابُها، بعد

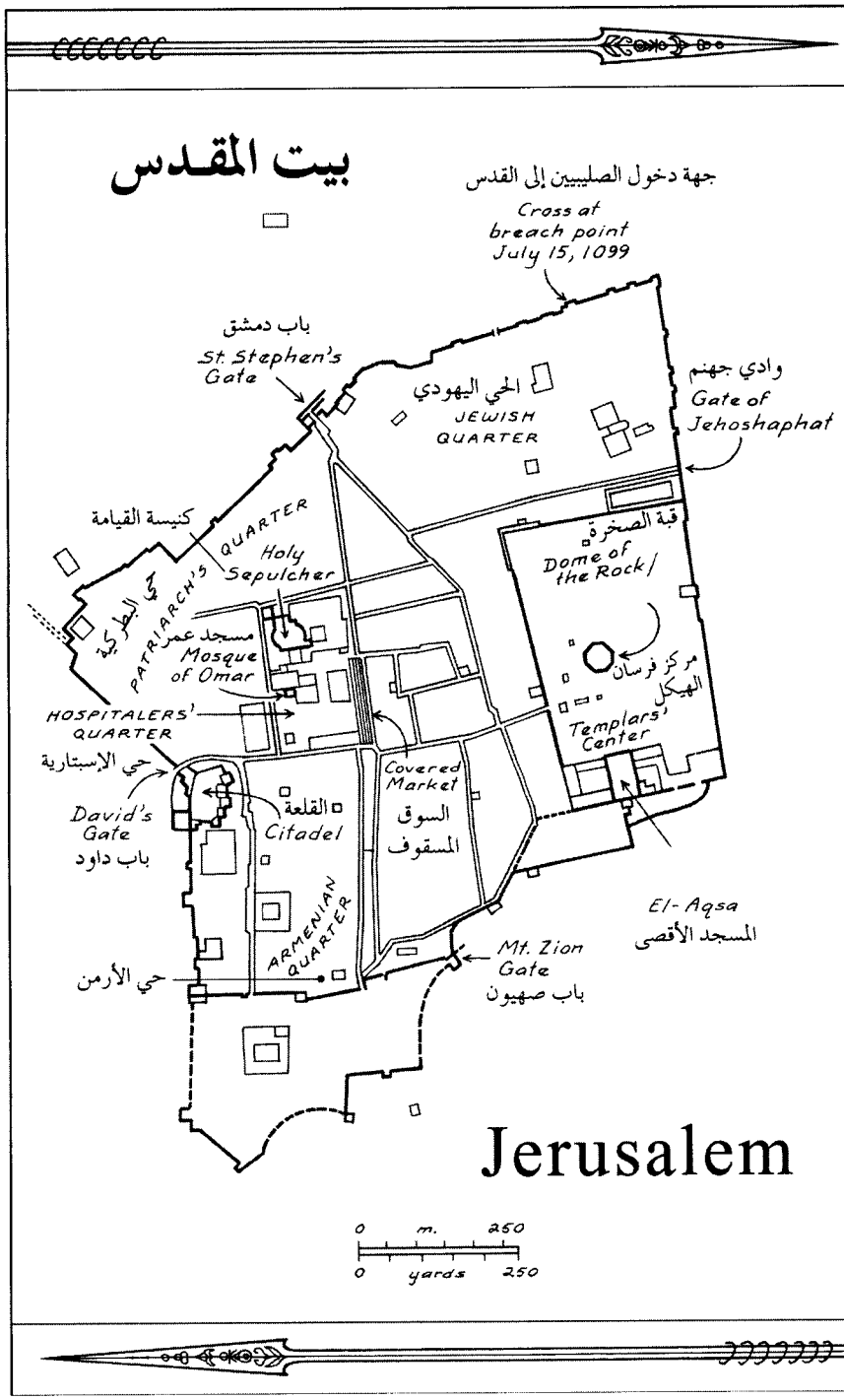
بيت المقدس
جهة دخول الصليبيين إلى القدس
Cross at breach point July 15, 1099
باب دمشق
St. Stephen's Gate
الحي اليهودي
JEWISH QUARTER
وادي جهنم
Gate of Jehoshaphat
كنيسة القيامة
QUARTER
Holy Sepulcher
حي البطركية
PATRIARCH'S
قبة الصخرة
Dome of the Rock
مسجد عمر
Mosque of Omar
مركز فرسان الهيكل
Templars' Center
HOSPITALERS' QUARTER
حي الإسبتارية
Covered Market
السوق المسقوف
David's Gate
باب داود
القلعة
Citadel
El-Aqsa
المسجد الأقصى
ARMENIAN QUARTER
حي الأرمن
Mt. Zion Gate
باب صهيون
Jerusalem
0 m. 250
0 yards 250

ثمانٍ وثمانين سنةً تحت سيطرة الكفار. استعاد الإسلام القدس، أو لكي يستعيد الإسلام القدس، كما يقول كاتبٌ ومؤرخٌ عربيٌّ معروف: «رحل السلطان من عسقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللنصر مصاحباً، ولذيل العزّ ساحباً؛ والإسلامُ يخطُبُ من القدس عَروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نُعمى ليَحمل عنها بوساً، ويهدي بشرى ليُذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لأعدائها على أعدائها وإجابة دعائها وتلبية ندائها، وإطلاع زُهر المصابيح في سمائها... وإقْصاء إعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته»[1]. في هذه اللحظة الحافلة بالتوقعات الكبيرة، كان صلاح الدِّين يكافحُ مشاعره، ويحاولُ أن يضبط غضبه وإحساساته الثأر من الغزاة ذوي العيون الزُرق. في التاسع عشر من أيلول/ سبنمبر قوَّضَ خيامه، وسار باتجاه القدس، توكَّلَ على الله وسلّم أمره إليه، وأمَّلَ أن يكونَ بابُ الفرج مفتوحاً له على مصراعيه. وقد أثارت سنابكُ خيله من الغبار ما غطّى عينَ الشمس، بحيث عادت الظلمة وعاد القتام. وشاركه جنوده في تقلب المشاعر، وتوقعات النصر. وعندما كانوا يزحفون كانوا يرفعون أصواتهم بالتهليل والدعاء لله سبحانه وتعالى. وكانت أعلامهم المزركشة تخفق فيها الرياح بالكتابات القرآنية التي تطرّز قصبها وحواشيها: «لا إله إلا الله، محمَّد رسول الله». وأقبل بعضهم على بعضٍ يقولون عندما سمعوا الأذان: قريباً سيحلُّ نداءُ المؤذّن محلّ قرع الأجراس. ووسط هذا الجوّ العابق بالحبور، كان صلاح الدِّين الذي جلب الله على يديه النصر، لعمق إيمانه وشدة ورعه يتقدم على جواده وسط جموع الجند الزاحفين. وفي اليوم التالي وقف جنوده أمام باب داود عند الجانب الغربي من أسوار المدينة المقدَّسة.

ما كانت هذه اللحظة التاريخية لتغيب عن بال صلاح الدِّين وانتباهه. إذ هو يعرف تماماً عار الحرب الصليبية الأولى وكوارثها. فقبل ثمانٍ وثمانين سنةً

(1) عن الفتح القَسّي، ص37.

نظّم القائد تانكريد قواته عند هذا المكان، ونظر إلىٰ أعلى الأسوار كما ينظر هو الآن، إلىٰ مدينةٍ كانت وقتها مدينةً إسلاميةً حصينة. وحماس الإيمان يتملك هؤلاء الصليبيين أيضاً. فقبل أن يهاجموا الأسوار يؤدون هم أيضاً صلاةً معينة. ثم إنهم يصومون، ويعترفون، ويتناولوا، ويتصدقون على الفقراء، ويصغون إلىٰ الشعائر المتلوّة، ويسعون حفاةً على الأقدام لزيارة الأماكن المقدَّسة تائبين. ثم إنهم هم أيضاً أرادوا تحرير مدينتهم المقدَّسة، حيث عاش مخلّصهم ومات. بيد أنّ الجنود المسيحيين كانوا أيضاً في قبضة الكراهية العنيفة. وكان ذلك هو الجانب الضعيف من إيمانهم. فهم ممتلئون بالعنف وحبّ سفك الدم. وقد أتت بالنسبة لهم أيضاً لحظة الثأر.

استغرق الحصار خمسة أسابيع، من 7 حزيران/ يونيو إلىٰ 15 تموز/ يوليو 1099م. خلال تلك المدة نجح أحد قادتهم واسمه ريموند أوف سانت جيل بردم الخندق المائي، ثم بدأ بنصب السلالم الخشبية على السور من الناحية الجنوبية من أجل تَسَلُّقِه، في الوقت الذي استمرَّ فيه ضربُ الأسوار وتشعيثها بحيث بدأت تتساقطُ نحو وادي جهنَّم. كان الجنود يهاجمون، بينما كان المهندسون يبنون برجين للحصار، وحاجزاً ضخماً بتجهيزاتٍ تسليحيةٍ، ومزيدٍ من السلالم. وبعد أربعة أسابيع على الحصار، ترك تانكريد Tancred الهجوم على برج داود، وتحرّك نحو الجهة الشرقية على طول الأسوار وصولاً إلىٰ الباب الشمالي للمدينة المسمَّى باب دمشق (والذي سمّاه الصليبيّون باب ستيفن Stephen)، حيث انضمّ إلىٰ القوات الرئيسية لقائد الجيش الصليبي يومَها غودفري دو بويون Godfrey de Bouillon. كان غودفري بطَلَهم الأسمى، «عبد المسيح»، ورمز الفروسية، وحامي الذخيرة المقدسة، وصار فيما بعد أول ملكٍ مسيحيٍ في القدس.

في 15 تموز/ يوليو 1099م، في يوم الربّ، يوم الجمعة، الذي كان المسيحيون في العصور الوسطى يعتقدون، أنّ المسيحَ فَدَى فيه البشرية على

الصليب، نجح تانكريد في خرق السور. ومن ذلك الخَرْق تدفق الجنود الصليبيّون إلىٰ داخل الحي اليهودي من المدينة، بينما دخل جنود غودفري من الباب الشرقي، واندفعت قوات سان جيل في الوقت نفسه تقريباً من الباب الجنوبي. وتلاقوا جميعاً على الجبل عند المسجد الأقصى، حيث تجمعت أعدادٌ هائلةٌ من المسلمين الذين لجأوا للحرم، وكانوا مستعدين للموت. وهناك بدأت المذبحة الوحشية. فطوال يومين انصرف الجنود المسيحيون لذبح كلّ من رأوه ليس من بني جِلدتهم. ويذكر فولشيه دو شارتر Fulcher de Chartre أنّ جثث كثيرٍ من القتلى كانت مشقوقةً أو مفتوحة لما شاع من أنّ المسلمين كانوا يخفون ذَهَباً في أجسادهم. وبلغت أعدادُ المذبوحين بالمدينة حسب التقديرات حوالي الأربعين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال. أما كنيسةُ القيامة، كنيسةُ الذخيرة المقدَّسة، أكثر الكنائس قداسةً في العالم المسيحي، فقد تحولت إلىٰ بركةٍ من الدم. ووجد الصليبيّون أنّ اليهود تجمعوا في كنيسهم، وقد هيأوا أنفسهم للشهادة. أقبل الجنود على إحراق الكنيس، وانصرفوا للرقص ورفع الصوت بالأناشيد الدينية. وبعد القتل بدأت عمليات النهب. نهب الغُزاة مسجد عمر المسمّى باسم الخليفة (الثاني) للنبي، والمجاور لكنيسة القيامة، ثم أحرقوه. كما دُمّر قبرُ إبراهيم. وقد قام الصليبيّون بكلّ تلك الأعمال براحةٍ وفرح، واثقين من عدالة أفعالهم، وفخورين بالقيام بتلك الأعمال لنصرة الدين، بقدر الأخلاقية المتواضعة التي كانوا يمتلكونها آنذاك. يقول ريموند دو أغيلار Raymond de Aguilers، أحد المشاركين المتحمسين في تلك المذابح: «في الهيكل وموقع سليمان، كان بوسع الرجال الغوص في الدماء إلىٰ رُكَبهم.. وقد كان ذلك عملاً عظيماً، وجزءًا من عدالة الله، أن يمتلىء ذلك المكان بدماء الكفَرة، لأنه عانى طويلاً من أعمالهم الفاجرة».

وبعد أن انتهت المذبحة، عمد غودفري والفرسان الآخرون إلىٰ نزع أسلحتهم وثيابهم وغسلوا الدماءَ التي غمّست دروعَهم وأجسادهم، وارتدوا

أردية التوبة، وذهبوا للصلاة في كنيسة القيامة، ممتلئين بهجةً وحبوراً. لقد قاموا في نظر أنفسهم بعملٍ رائع، يدخل في أعلى تقاليد الفروسية، أَوَلم يكونوا هم فرسان المسيح؟ وقاد بطرك القدس مسيرةً احتفاليةً إلىٰ جبل الهيكل، حيث أنشد الجمع نشيداً شعائرياً مرفوعاً للرب: «بصوت مملوءٍ بالبهجة». ومن هناك مضت القافلة إلىٰ الكنيسة التي بُنيت بسرعة بجانب الباب الذهبي، ثم إلىٰ المكان الذي خُرقت فيه الأسوار. وفي تلك اللحظة التاريخية رفعوا أَكُفَّ الضراعة والشكر لله (على ما وهبهم من نصر)، وقاد البطرك صلاةَ توبةٍ وعرفان.

يقول غيبرت دو نوغنت Guibert de Nogent المؤرخ الأشهر للحملة الصليبية الأولى: «إذا نظرنا إلىٰ معارك الأُمم، وفكرنا في الأعمال العسكرية الكبرى التي اجتيحت بها ممالك، فلن نجد إنجازاً مثلَ ذاك الذي حقّقه جيشُنا». وهو لا يجد نفسه مضطراً للاعتذار عما حدث للنساء: «وما أَضَرَّ الفرنج بالنساء اللواتي وجدوهنّ في معسكر العدو، باستثناء أنّهم استلوا سيوفهم وبقروا بها بطونهنَّ». أما فولشر، السالف الذكر، فيقول بحماسٍ وشَغَف: «آه، أيها اليومُ المرغوب والرائع. لقد كان مرغوباً من أعماق الفؤاد، لأننا أمَّلْنا دائماً نحن المؤمنين من أهل الاعتقاد الكاثوليكي، أن نتمكّن من العيش في الموطن الذي شَهَد ربَّ الأرباب، الذي تجسَّدَ، رحمةً بالعباد، مولداً، وموتاً، وقيامةً، وتحقيقاً للخلاص. أردْنا لهذا المكان أن يعودَ لسابق عزته وكرامته. وأردْنا له، وقد دنّسته أقدام وأفعال السكان الوثنيين، أن يتحرّر من الأَوضار».

(هكذا كانت العصور الوسطى). كلُّ ما تعتبره ديانةٌ معيَّنةٌ صحيحاً وماجداً، تعتبره ديانةٌ أخرى عاراً وشناراً.

لقد كانت وقائع وأياماً لا يستطيع المسلم أن ينساها. فإذا كانت المدينة قد ظلّت لستة أشهُرٍ بعد المذبحة تتصاعدُ منها روائح الجثث؛ فإنّ تلك المذبحةَ ظلّت في ذاكرة المسلمين لتسعين سنة ـ بل ولتسعمائة سنة ـ. ولا شكَّ أنّها

كانت تشتعل في ذاكرة صلاح الدِّين ونفسيته، وتؤثّرُ في عزيمته وطريقته في التفكير من خلال التربية والتصميم؛ مضخّمةً إلىٰ الحدّ الأقصى. لقد كان استيلاءً فظيعاً ليس خليقاً أن يشعر بالمجد الذي أحسَّ به الصليبيّون الأوائل، وكان على صلاح الدِّين أن يضبط رغباتِهِ، في الغضب والثأر وردّ الفعل والاستيعاب والعدالة.

الآن، جاء دورُهُ هو.

أقبل صلاح الدِّين على استطلاع المدينة، وتفقد أسوارها طول خمسة أيام. وفي اليوم السادس، أي السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر بدأ الهجوم. قدّر صلاح الدِّين عدد المدافعين عن المدينة بعشرة آلاف مقاتل، وقد كان ضجيجهم عالياً يُسمع من الخارج. ثم إنهم أقبلوا على النفخ في الأبواق، والتحميس بالأناشيد الدينية من فوق الأسوار: أيها الصليب الحقيقي المقدَّس! أنقِذ مدينة جيروسالم! إحم الذخيرةَ المقدَّسة. وأقبل بعضُهم على تحميس البعض الآخر، بالزعْم أنَّ الواحدَ منهم يستطيع أن يُواجهَ مائة مسلم. كما أقبلوا على الصلاة والاستغفار وإنشاد نشيد الموت تدليلاً على استعدادهم للاستقتال. أما عن هجوم المسلمين؛ فإنّ مسيحياً ذكر أنّه لم يكن بوسع الواحد أن يرفع إصبعه فوق السور بدون أن يُضرب، لكثافة الرمي بالسهام من جانب المُهاجمين. بيد أنّ هذه الهجمة الأولى لم تُحدث الأثر المرجوّ. ولذلك فقد غيّر صلاحُ الدين تكتيكه بعد عدة أيام. وراقب المدافعون من على الأسوار المسلمين وهم ينسحبون ليعيدوا نَصْب خيامهم على جبل الزيتون، وفي وادي جهنم. وقد ظنّ المدافعون لحظاتٍ أنّ المسلمين قرروا ترك حصار المدينة؛ ولذلك فقد صاحوا: ملك الشام يهرب! وترددت صرخاتهم داخلَ المدينة: لم يستطع تدمير المدينة كما خطَّط! لكنّ الواقع أنَّ السلطان كان ينتقل إلىٰ موقعٍ أعلى، من باب داود إلىٰ السور الشمالي عند باب ستيفن أَو باب دمشق. وكانت قواته بعد تغيير التكتيك تُعَسكِرُ في الموقع نفسه الذي عسكر فيه

غودفري دو بويون وتانكريد قبل ثمانيةٍ وثمانين سنة. وأحضر صلاح الدِّين المناجيق (جمع منجنيق) والعرَّادات وآلات الحصار إلىٰ جانب السور الشمالي، ومن هناك بدأ ضرْبُ المدينة. كما أحضر المُحاصِرون آلةً تُشبه القوس لكنها أضخمُ وأقوى، ترمي الحجارة بدلاً من النبال. واستمرَّ قصفُ أسوار المدينة بالقوس الضخم، وبالمنجنيق، في الوقت الذي كان فيه المهندسون يعملون على هدم السور بالحفر تحته أَو بمحاولة إحداث ثقوبٍ فيه كانوا يُدخلون النارَ منها إِلىٰ الداخل.

بعد يومين من ضرب الأسوار، بدأت تترنح في بعض المَوَاطن. واستطاع المسلمون هدْم أجزاء برجٍ عند باب سان ستيڤن (باب دمشق من قبل). وفي نفس الموقع الذي تمكنَ الصليبيّون من إحداثِ خَرقٍ فيه من قبل، استطاع المسلمون أيضاً. وسقطت الصخور باتجاه الوادي، كما سقط الصليب التذكاري الذي أقامه الصليبيّون الأوائل. واعتبر المدافعون أنَّهم خاسرون، وبدأوا يهربون. كان في القدس شخصان يعتبران نفسيهما مسؤولين: البطرك أيراكليوس Eraclius، وقائد الجيش الذي يتولى تنظيم الدفاع عن المدينة؛ باليان أوف إبَلين Balian of Ibelin. كان باليان من عائلة نبلاء كبار، طويل القامة. وكان يحكم الإقطاع الذي ورثه عن أبيه من قلعته في نابلس. وهو الذي حمل الطفل بلدوين الخامس، بين ذراعيه لكنيسة الذخيرة المقدَّسة، لكي يتوَّجَ ملكاً بعد وفاة الملك المجذوم بلدوين الرابع. ثم إنه كان هو الذي نصح الملك غي ـ مع حليفه الآخر ريموند الطرابلسي ـ في معاركَ سابقة، وتزعم فرسان الهيكل الذين أغاروا على ساقة جند صلاح الدِّين في حطّين. وقد استطاع النجاة بأعجوبةٍ مع بعض فرسانه بدلاً من مقاساة العطش والموت في سهل لوبيا. وهكذا فقد كانت تجربة باليان غنيةً مع العرب، وكان معتاداً على الحديث والتفاوض مع صلاح الدِّين. ولذلك لم يكن عجيباً وهو اللاجىءُ إلىٰ صور، أن يطلب من صلاح الدِّين السماحَ له بالإتيان إلىٰ بيت المقدس لاصطحاب

امرأته. ووافق السلطان، على أن لا يحمل باليان السلاح ضد المسلمين، وعلى أن لا يبقى بالقدس غير يوم وليلة. ولكنْ بمجرد وصوله ألحَّ عليه المدافعون أن يتولى تنظيم الدفاع عن المدينة. وفي عصر الفروسية ذاك؛ فإنّ هذا الطلب تسبَّب بأزمة ضميرٍ لباليان. فقد تعهد لصلاح الدِّين بأن لا يحمل السلاح، وأن لا يبقى بالقدس. وكتب إلىٰ صلاح الدِّين ليُحِلَّهُ من قَسَمه بحيث يستطيع البقاء. وقد فعل صلاح الدِّين ذلك، لأنه ما كان مهتماً بما عليه المدينة من قوة، أَو لأنه كان يعرِفُ وجوهَ ضعفها. وما كان هذا الفارس محتاجاً إلىٰ نصائح البطريرك الذي كانت حياته فضيحة؛ فقد كان يعيش مع صديقةٍ في منزله، كما كان معروفاً في نابلس باسم «السيدة البطريركة». ما عاد بالقدس غير نبيلين اثنين، وفرسان الهيكل غير المحبوبين هم الذين يحكمونها. بيد أنّ الناسَ ما كانوا يحبون الخضوع للهيكليين القُساة والمتشددين، وطلبوا من باليان أن يتولَّى قيادتهم. واستجاب متردداً للرغبات الشعبية. وكان أول ما فعله إرسال أُناسٍ يشترون الطعام لتخزينه. ثم أعلن ستين من شبان المدينة، من أبناء عائلاتها المهمّة، فرساناً، استعداداً لتنظيم الدفاع عنها.

أمّا الآن، وقد حدث الاختراق الأول لسور المدينة؛ فإنّ باليان يعرفُ أنّ الموقف يائس. وإذا كان بحاجةٍ لدليل على أنّ الكفاح انتهى، والمعركة خُسرت، فليلتمسه عند البطرك، الذي عرض خمسة آلاف بيزنطية ذهبية على خمسين من شباب المدينة لحراسة السور في المكان الذي حدث فيه الخرق. وكان ذلك أكثر بخمسمائة مرة من أَجْر الفارس العادي، بيد أنّ البطرك لم يجد أولئك الخمسين بعد. بينما من الجهة الأخرى كان هناك حوالي الاثنتي عشرة رايةً مزركشةً مزروعةً في السور من جانب المسلمين. وبدأت النسوة بالتجمع في كنيسة الذخيرة المقدَّسة حيث جلبن أطفالهنّ، وملأن الأجرانَ بالماء البارد ووضعْنَهم فيها وقصصن شعرهم؛ في فعلٍ من أفعال اليأس، انتظاراً للشهادة. ومع ذلك فقد كان بين ذوي الرؤوس الحامية من اقترح هجوماً مضاداً أخيراً في

سياق التقليد الصليبي العريق للشجاعة والفروسية، لكنّ البطرك نصح بعدم المصير إلىٰ هذا الحماس الماجد. فإذا فشل الهجوم؛ سيموت الفرسان، وستباع نسوتهم وأطفالهم وأرواحهم في أسواق العبودية، ويُحالُ بينهم وبين الدخول إلىٰ النعيم: «فالعرب لن يقتلوهم، بل سيدفعُونهم إلىٰ ترك إيمانهم بالمسيح، وسيضيعون جميعاً في عين الله». وبذلك فقد نُصح باليان بأن يبحث في حلٍ سلمي وأرسل القائد مبعوثيه إلىٰ صلاح الدِّين معلناً عن رغبته في الحديث. وبدا صلاح الدِّين غير مهتم للوهلة الأولى: «رجالي العقلاء يقولون إنه لا يمكن تنظيف المدينة إلاَّ بالدم المسيحي»؛ قالها بمرارةٍ وتحدٍ. ثم ذكّر المبعوثين بماحدث قبل ثمانٍ وثمانين سنة: «ومستشاريّ يقولون إنّ عليَّ أن آخُذَ بثأر أولئك المسلمين الذين قتلهم غودفري في الشوارع، بل وفي الكنائس والمساجد»[1]. ثم تراجعت هذه اللهجة العالية قليلاً عندما وافق صلاح الدِّين على العودة للتشاور مع العلماء. وأُرسلت سِفارةٌ أخرى فعادت خائبة. ثم جاءت بعثةٌ ثالثةٌ برئاسة باليان نفسه للتفاوض مع صلاح الدِّين. قال باليان إنّ على صلاح الدِّين أن يذْكُر شروطَهُ للاستسلام؛ بعد أن قال إنه مستعدٌ لتسليم المدينة مقابل العفو عن سكّانها. وأجاب صلاح الدِّين: «لا عفو عنكم ولا رحمة لكم! غداً سنصبح سادتكم، فنقتل رجالاتكم، ونبيع نساءكم وفقراءكم في سوق العبودية». وأمام هذا الإصرار من جانب صلاح الدِّين، بدأ باليان هجومه المضادّ مستجمعاً شجاعته المعهودة: «أيها الملك! اعلم أننا في هذه المدينة في خَلْقٍ كثير لا يعلمهم إلاَّ الله تعالى، وإنما يفرُّون عن القتال رجاءَ الأمان ظناً منهم أنك تُجيبُهُم إليه كما أجبْتَ غيرهم؛ وهم يكرهون الموتَ ويرغبون في الحياة. فإذا رأينا الموتَ لا بدَّ منه فوالله لنقتلَنّ أبناءَنا ونساءَنا

(1) في الكامل لابن الأثير 11/ 207، ومفرّج الكروب 2/ 213: «لا أفعل إلاّ كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبْي، وجزاءُ السيئة بمثلها».

ونحرقَ ما نملِكُهُ من أموالِنا وأمتعتِنا، ولا نترككم تغنمون منا ديناراً ولا درهماً، ولا تأسرون رجلاً ولا امرأةً. فإذا فرغْنا من ذلك كلِّه أخربْنا الصخرةَ والمسجدَ الأقصى، وغيرهما من المواقع الشريفة. ثم نقتُل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين؛ وهم خمسةُ آلاف أسير، ولا نترك لنا دابةً ولا حيواناً إلاَّ قتلناه، ثم خرجْنا إليكم، وقاتلْنا قتالَ من يريد أن يحمي دَمَهُ ونفسَهُ، وحينئذٍ لا يُقتلُ الرجلُ حتى يقتلَ أمثالَهُ، ونموتَ أعزاءَ أَو نظفر كراماً»[1]. وأضاف باليان: «فما هي الفائدةُ التي ترجونَها من هذا التشدُّد غير الكريم؟ إنكم على وشك أن تفقدوا كلَّ شيء». وبدأ باليان يحظى باهتمام صلاح الدِّين منذ هدَّد خلال كلامه بتدمير المسجد الأقصى وقبة الصخرة. وتأمل صلاح الدِّين وجه خصمه النبيل الحزين والجادّ فعرف أنّ الرجل لا يصطنع تهديداتٍ جوفاء. ومع ذلك، فما كان السلطان ليوافق على الاستسلام والأمان، وجائزتُهُ الكبرى في قبضته وأمام ناظريه. لا بد أن يكون واضحاً للجميع أنه أخذ المدينة عَنوةً لا صُلْحاً، وليس نتيجةَ تسويةٍ، بل بانتصارٍ ساحق. لقد كان هذا وعده لرعاياه، بل ولنبيه الكريم. وهكذا التفت السلطان إلىٰ باليان وقال: «سأُخبرك ماذا سأفعل. سأكونُ رحوماً مع بني قومك، وأحفظ قَسَمي في الوقت نفسه. تستسلمون كأنما أُخذت المدينةُ عنوة. وسأتركهم يأخذون معهم ممتلكاتهم وثرواتهم. أما أولئك الذين يستطيعون أن يفتدوا أنفسهم فسأتركهم يذهبون مقابل مبلغٍ معلوم. وأما الذين لا يستطيعون شراء حريتهم فسيظلون عبيداً عندنا». وتبع ذلك العرضَ جدالٌ حول الشروط، لأنّ النزاع صار هنا حول ثمن الحرية وليس حول الحرية ذاتها. وعُرضت شروطٌ وشروطٌ مُضادَّة. فقد كان إيراكليوس وباليان يتفاوضان من أجل الفوز بخلاص أكبر عددٍ ممكنٍ من الفقراء الذين لا يستطيعون دَفْعَ الفدية؛ وهم حوالي العشرين ألف إنسان؛ أمّا الأغنياء فيستطيعون دفع فديتهم بأنفسهم ولا داعيَ للمفاوضة حولهم. واستغرق الأمر

(1) عن الكامل لابن الأثير 11/ 206 - 208.

بعض الوقت حتى اتفق الطرفان على قدْر فدية الشخص الواحد: عشر بيزنطيات عن كل رجل، وخمس عن كل امرأة، وبيزنطية واحدة عن كل طفل[1]. وكان باليان والبطرك يعرفان أنّ بوسعهما جمع ثلاثين ألف بيزنطية من الاحتياطي الذي أرسله هنري الثاني ملك إنكلترا لدعم المملكة اللاتينية تكفيراً عن قتله توماس بيكيت. وسيحرر ذلك المبلغ سبعة آلاف مسيحي. ثم جرى جَمْعُ تبرعاتٍ من الناس في الشوارع أدت إلى تحرير مئاتٍ آخرين.

(1) في ابن الأثير 11/ 208، وكتاب الروضتين 2/ 95، ومفرّج الكروب 2/ 214: «.. يزن كل رجلٍ عشرة دنانير يستوي فيها الغني والفقير. وتزن المرأة خمسة دنانير. ويزن الطفل الذكور والإناث دينارين...».